لعل فى القراء من يظن أن الآثار المصرية القديمة ، التى تخلفت لنا عن الفراعنة ، والتى تملأ الآن المتحف المصرى بالقاهرة ، ومتاحف العالم طراً ، وتغشى أكبر قسط من ارض مصر ، والتى يحج الى رؤيتها الزوار من أقصى الأرض ومختلف الأمم ، ليست الا أحجاراً صماء ، وأشياء وأدوات جافة ، لم تكتمل كل درجات الفن ، وليس عليها مسحة من الجمال . فقيمتها فى نظره فقط هى تاريخها السحيق وقدم عهدها .

فهل تحسب أولئك الرواد والزوار ، أفراداً وجماعات ، يتكلفون مشقة الانتقال الى أرض مصر ، ويبذلون أموالهم ، ليشاهدوا أحجاراً مرصوصة ، وأبنية من الصخر قائمة ، وعاديات تافهة ، قد يمكن أن نرى أمثلتها فى كل مكان . أو هم تكبدوا ذلك من أجل الفن الذى تحويه . الفن الذى يجذب القوم جذباً ، ورغم أشد الناس جفاء وخشونة على الاعجاب والاحترام .

فمنذ أشرقت الشمس على أرض مصر ، وأرسلت اليها قرون أشعتها الدافئة الملازمة صيفاً وشتاء . ورسمت بها على الرمال ظلالا أخاذة شعرية . وأسالت على سماء مصر فى شروقها وغروبها ألوان الشفق الفاتنة .

ومنذ انساب النيل بين بطاحها ، فكون واديه . وأنشأ هذا البساط الأخضر البديع على جانبيه .

ومنذ حبا الله طبيعة مصر وجوها بالهدوء والاعتدال ، والصفاء والانسجام ، مع تلك الشمس السافرة التى لا تتقنع ولا تغيب . والقمر المتلألىء الذى يظل يحيى أراضيها بخيوط شعاعه الفضى الشعرى ولا يحتجب .

ومنذ استوطنت مصر السلالة البشرية من أولاد حام ، فنسلت فيها ذلك العنصر النشط المجد المتحفز .

منذ كل ذلك . كان بمصر فن ، وفن رائع . نشأ من يومه قوياً . وكان فيها أثر بالغ للذوق الحسن ، ومعرفة للكثير من أسباب الجمال . ظهرت آثار كل ذلك فى كل شىء ، وفوق كل حجر ، وفى كل بناء . منذ أول عصور ما قبل التاريخ حتى آخر عهد أولئك المصريين القدماء .

عظمة مصر فى فنها القديم

وحيث نعمت مصر بالفن منذ الانسانية الأولى ، أو منذ أقدم المدنيات طراً ، فحديث الفن فيها هو حديث نشأة العالم الأولى ، أو حديث الحضارة والنور .

واذ ثبت الآن أن جميع فنون العالم انما نقلت عن فن مصر ، واقتبست منه ، وأثرت بدورها فيما جاورها بما نقلت واقتبست . فقد يكون الفن بمصر هو السجل الأقدم الذى يجمع أسس الفن وأصوله ودعائمه .

واذ سبقت مصر الأمم جميعاً الى الفن الجميل ، وأدركت أسرار الجمال فى كل شىء . فأبرزت صور هذا الجمال فى كل منتجاتها فى تاريخها القديم . فان مصر هى التى بثت فى العالم الروح الفنية التى تقدر الحسن وتفهم معانى الجمال .

وموضوع الفن فى التاريخ المصرى هو موضوع الحياة المصرية القديمة كلها فى مدار الحكم الفرعونى . فكل شىء ، وكل حركة ، وكل عمل ، كان للفن فيه أثر . وكان قطعة نفيسة تقتنى ، وتحمل الناس على الاعجاب بها .

وكان العالم الحديث يظن أن المصريين القدماء كانوا قوماً خشنى الطباع ، مجردين من عوامل الرقة ودماثة الخلق . حتى أظهرت الاستكشافات العدة للبعثات الأثرية المختلفة ، ومصلحة الآثار المصرية ، خطأ هذا الظن بما أخرجت من جوف الأرض من كنوز وتحف ، ناطقة بأبدع صور الفن وأسمى معانى الجمال ، مما سنشرحه فى كلماتنا القادمة ان شاء الله .

ولئن كانت مصر قد فقدت الكثير ، من سائر سلطتها الماضية . وسلبها الدهر حريتها واستقلالها اللذين سجلها لها التاريخ فى العهود القديمة قروناً ودهوراً . فانها لم تفقد الفن فى آثارها . ولم تفقد مظاهر الجمال فى مخلفات قدمائها .

وهذا المجد الموروث الذى تتيه به ليس هذه الصخور فى محاجرها ، أو التى نقلتها السلطة والجبروت الى مواضعها . وانما هو أثر الفن فى تكوينهم لها ورسومهم ونقوشهم عليها .

ولعل عزاء مصر . هذه الأرض التى حملت الفراعنة الأمجاد وآوتهم ، وشهدت العظمة والمجد فى أعلى درجاتهما . وصرعت عليها الدول المتعاقبة من مواطنين ومغيرين ، فتحطمت فى واديها دعائم الجبروت ، وتلاشت معالم القوة والبطش . لعل عزاء مصر الوحيد أنها لم تفقد الفن . ولم تفقد صور الجمال فى آثارها .

احمد يوسف